Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلّ الأعمال متساوية الأهميـة، فقط المهم أن أحتمي منها كما أستطيع! -فكر بيير- فقط المهم ألا ألاحظها، هذه المخيفة" (٩٧ ص٢٩٧) . ويقصد بكلمة المخيفة أن الحياة مخيفة. إنّ تأملات بيير حول الحياة تشبه تأملات تولستوي نفسه. يكفي أن نتذكر ما كتبه تولستوي في اعترافه (١٨٨٠) بأنّ الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلا حين تسكره الحياة وتغشي بصيرته، أمّا حين يكون صاحياً، فيستحيل عليه إلا أن يرى أنّها زيف محض، زيف غبي! فالحق أنّ ليس فيها شيء مسل أو ذكي، إنها غبية، بكل بساطة قاسية.

ويكتب تولستوي الأسطورة الشرقية التي تتحدث عن مسافر اعترضه في الوعر الفسيح وحش مفترس، فاضطر للهرب منه والقفز في بئرٍ جافةٍ، لكنه رأى من بعيد في قاع البئر تنيناً، قد فتح فكيه لافتراسه، فتمسك بغصن شجرةٍ، لكنه رأى جرذين أبيض وأسود، يدوران حول الغصن، ويقضمانه. فعرف أنّه لا محالة هالك.

حالة بيير بيزوخوف غير طبيعية. فهو غني ومتعلم ودو صحةٍ جيدةٍ، ولكنه لا يعرفُ السعادة ويثير السخرية لأنّ زوجته خائنة، ولاتحبه، كلّ فلاح من فلاحيه سعيد أكثر منه. وحصل بيير على السعادة في نهاية المطاف، فتزوج من ناتاشا روستوفا. فاستحق بيير السعادة لقلبه الذهبي. فإذا كان زواج بيير من إيلين قد أدى به إلى التشاؤم فإنّ زواجه من ناتاشا روستوفا أنقذه منه وخلصه من الأفكار السوداوية.

أمّا دولوخوف -أحد أبطال الرواية، الذي أصبح عشيقاً لإيلين زوجة بيير "فلعب في حياة بيير الدور نفسه، الذي لعبه أناتول في حياة أندريه بولكونسكي..." (٨٦ص٧٦) وعندما يقع بيير في الأسر، وتظهر جانبه ناتاشا روستوفا، وآنذاك كان المخلّص هو أفلاطون كاراتايوف، الذي ترك انطباعاً كبيراً على بيير ليس بكلماته وإنما بتصرفاته. وتم لقاء بيير بأفلاطون كاراتايوف عندما تحطّم إيمان بيير بعدالة النظام الذي يسود العالم، وباللّه، وتغلغلت أفكار أفلاطون كاراتايوف إلى أعماق قلب بيير ليس كنظريةٍ، كمنظومةٍ فكريةٍ، وإنّما كإحساس بالحياة المحيطة المفقودة المعقولة. أحب أفلاطون كاراتايوف الجميع وعاش الحبّ، وبقوة هذا الحب كان أفلاطون كاراتايوف يحس أنه جزء لا يتجزأ من العالم كلّه. كاراتايوف ابن الطبيعة العظيم. وعندما يموت فإنّما يرجع إلى حضن الطبيعة.

ويرى غالاغان أنّ موقف تولستوي من شخصياته هو موقف أخلاقي (١٤٢